على طريق الأصالة

(٢٢)

إحتواء العقل المسلم

أنور الجندى

إحتواء العقل المسلم

تلك حقيقة أساسية لا سبيل إلى تجاهلها أو تجاوزها : وهى خطة مرسومة يجرى تنفيذها منذ وقت طويل وبعدة أساليب ومن خلال أكثر من وسيلة بهدف واضح هو السيطرة على الوجهة الإسلامية المستمرة من التوحيد والقرآن والسنة والقائمة على التميز الخاص ، وهى فى بعض الأقطار العربية محاولة لتقبل الأوضاع التى فرضتها ظروف أو أوضاع مؤقتة ، أو نبوءات وأساطير يجرى إذاعتها وترديدها ، بهدف أن يؤدى ذلك إلى قبولها والتسليم بها والمسلمون إزاء هذا كله مطالبون باليقظة والحذر ، فإن القواعد التى يمكن بها فحص المعارف والمطروحات الخارجية واضحة ومقررة ، وهى أن لا تخالف أساساً من أسس الإسلام ومفاهيمه وقيمه . فقد عرض القرآن الكريم لكل هذه الدعوات القديمة التى رددتها الأمم والشعوب فى مراحل مختلفة من حياة البشرية وكشف عن حقيقتها وأبان وجه الحق فيها فى وضوح كامل ، وذلك حتى لا تخادع العقل المسلم إذا أعيد طرحها بأسلوب أو بآخر .

ونحن نعرف أن قوى معينة معادية للإسلام ، تحاول احتوائه وصهره فى بوتقة الحضارات العالمية والفكر الأممى ، فهى تعيد ترديد هذه الشبهات والأساطير والمقولات على نحو جديد وبأسلوب عصرى

مخادع ، براق ، ربما يغوى بعض شبابنا الذى لم يتمكن من استيعاب التحديات التى تواجه عقيدته وقيمه .

ولقد تكشفت للمسلمين تلك المطارحات التى قدمها النفوذ الأجنبى عن طريق الإستشراق فى خطوط ثلاثة : تحاول أن تخدم الفكر الليبرالى الغربى المسيحى والفكر الماركسى الشيوعى، والفكر الصهيونى الماسونى وقد كانت المحاولة دائمة الإلحـــاح على التقريب بين الفكر الإسلامى والفكر الغربى (المادى الوثنى أساساً والقائم على الفلسفة المادية) فى محاولة لإعطاء كل مصطلح غربى مثيلا أو بديلا له فى الفكر الإسلامى على النحو الذى خدعوا به أجيالا من الحديث عن الديمقراطية والشورى والإشتراكية والعدل الاجتماعى وبنو العم اليهود والمفارقة بين العروبة والعبرية وكلها أضاليل خادعة أريد بها توهين الإيمان الإسلامى واليقين القرآنى الذى يضع فاصلا عميقاً بين مفهوم الإسلام وبين المفهوم الذى وصل إليه الفكر الغربى (بعد أن تجاوز مفهوم الأديان المنزلة وانحرف إلى مفاهيم الرفض الكامل للألوهية والنبوة والغيب والمحسوس وغيرها من الأسس الأصيلة للدين الحق المنزل .

وهناك عدد من المحاولات يجرى اليوم طرحها فى سبيل توهين ذاتية الإسلام وتميزه الخاص وطابعه المفرد ، وإن كان هذا التمييز لا يقدم أى تعارض مع سماحته وصدق تعامله مع أهل الكتاب

وجميع غير المسلمين مــــن أى دين وملة . ولكنها هى الحقيقة الضرورية الثانية فى حماية (ذاتية الإسلام) من الإنصهار فى أى بوتقة تحت أى اسم مــــن أسماء الحوار أو العالمية أو الإمتزاج أو تغيير موقف المسلمين من عداوة المعتدين عليهم، أو حماية وجودهم فى وجه الخطر المحدق بهم والمؤامرة المدبرة لهم ، أو إيجاد أمن وهمى من شأنه أن يحول دون امتلاك قوة الردع والاعداد والمرابطة فى الثغور .

وفى هذا المجال تجرى المحاولات اليوم من أجل الإختراق الفكرى الصهيونى للمجتمع المصرى العربى الإسلامى حيث تركز القوى المتربصة على الهجوم على محور الإسلام وأضعاف القيم الفكرية والدينية التى تغذى إحساس المسلم بضرورة اليقظة والحصانة من الاحتواء الصهيونى وذلك بمحاولة العمل - حسب تعبير الدكتور إبراهيم البحراوى - عبر أساليب علمية وإعلامية على إزالة أثر شعور العداء وتحويل النفس المصرية العربية المسلمة إلى حال قبول إسرائيل كحقيقة سياسية أو تاريخية .

ومن أجل تحقيق هذا الهدف تبدو واضحة تلك المحاولات التى ترمى إلى تقسيم المجتمع إلى شرائح، هذه الشرائح تمثل فى ذاتها عدداً من المحاور ، أهمها الهجوم على القيم الإسلامية والتاريخ الإسلامى

وتأثير الشريعة الإسلامية على المسلم والتشكيك في مجموعة من الحقائق الأسلامية الأساسية .

فنحن نرى اليوم محاولات لتفسير الإسلام تفسيراً مختلفاً بتفسير بعض آيات القرآن المحكمة التي تتصل بالحكم والقضاء والتشريع تفسيراً مشككا ، كما نرى بعض الكتاب يحاول أن يفسر (قضية الربا) تفسيراً يثير الشبهات ويخفي الحقائق ، ونرى هناك من يشكك في أن الجهاد فرض عين على المسلم في حالة وقوع أي عدوان على أرض إسلامية تحت الإغتصاب أو الاحتلال وذلك في مواجهة ما تقرره حقائق الشريعة الإسلامية ويفسره الفقه الإسلامي من أن الأرض التي دخلها الإسلام وارتفعت راياته عليها وإذن فيها إذ أن الإسلام لا يقر التصالح أو التعاهد بشأنها ويظل المسلم مسئولا إلى أن تتحرر هذه الأرض وتعود راية الإسلام مرفوعة وعلى رأس هذه المواقع في عصرنا الحديث « القدس والمسجد الأقصى » كل هذه المواقف يجرى التشكيك فيها ومحاولة إلغاء أثرها في نفس المسلم .

ويتزايد ضغط هذه المحاولات ويتكاثف في مواجهة تعالى الصحوة الإسلامية وعمليات المقاومة المسلمة داخل الأراضي المحتلة والتي تمثل عائقاً صلبا أمام مخطط الإختراق الفكري الصهيوني .

وهكذا يواجه العقل المسلم عنصراً جديداً من عناصر التلبيس

والتشكيك ويتضاعف آثار الموجة العارمة التي تتمثل في عدة محاور من التغريب والغزو الثقافي من خلال الصحافة والثقافة ومقررات المعاهد والجامعات والمدارس، وكلها تحاول محاصرة العقل المسلم في محاولة إرغامه على الاستسلام أمام الفلسفة المادية والفكر الوثني والمادي وإنكار الإلوهية والغيب والنبوة وما يتصل بها في مسعى الإنسان بالمسئولية الفردية والإلتزام الأخلاقي والبعث والجزاء الأخروي.

والهدف في الأساس هو هدم ذلك الحائط المرتفع الذي يمثل ذاتية الإسلام المتميزة التي تتطلب المحافظة عليها وحمايتها والمرابطة من أجل الدفاع عنها حتى لا تنهار أو تنصهر، مع إقرار مبدأ الإنتفاع بتجارب الآخرين ودراستها والإقتباس منها ونقـــل الوسائل والأساليب والتنظيمات العصرية والمستحدثة.

ولعل أخطر المحاولات التي ترمي إلى هـــدم هذه الذاتية تقبل وسائل الإغراء التي تم عن طريق الرحلات والأندية والصالات الصاخبة بالرقص والخمور والعطور ومحاولة استغلال الجنس من أجل إخضاع النفوس والعقول أو محاولة استقطاب بعض الكتاب والكاتبات عن طريق تقديم دراسات عن أدبهم أو ترشيحهم للجوائز الكبرى. ولقد كانت الموسيقى والرقص والغناء أدوات أساسية للإغراء والخداع أو إستغلال بعض النصوص التاريخية التي تتصل بالمواقع التي وردت في الكتب المقدسة أو الآثار أو المعابد والأهرامات

وغيرها لتكون مدخلا من أجل تذليل العقل المسلم لقبول عوامل الإستسلام والخداع أمام ما يسمى بوحدة الأديان أو وحدة الثقافة أو عالمية الحضارة أو الهيومنيزم فإن هذه كلها شباك مخصوبة خادعة يراد إيقاع المسلمين الذين لم يستوعبوا مخاطر الدعوة المدعاة .

• • •

وهكذا نرى أن هناك هجوماً معلناً من عدة جهات على العقل المسلم بهدف احتوائه وتفريغه من مضمونه الإسلامى وإخضاعه للفكر الصهيونى والفكر الأممى العالمى بصفة عامة

وفى مجـــال الثقافة يوجد تحريف شديد للقيم ومسخ للتاريخ والشخصية وتطويع الأجيال لولاء غريب للنموذج الغربى ،بضرب الاقليميات بالقوميات من أجل القضاء على الولاء الإسلامى الجامع.

وإذا كان بعض أمم الغرب تتحدث عن ثقافة مهدده بالغزو من ثقافة غربية اخرى (على النحو الذى تشكو فيه أوروبا من غزو الثقافة الأمريكية) مؤتمر المكسيك ١٩٨٣ .. فما بالك بالموقف بالنسبة للثقافة العربية الإسلامية التى لها أصول خاصة مستقلة ، والتى تتعرض أكثر لفقدان هويتها إزاء محاولة احتواء الحضارة الغربية

ومحاولة التشويه والتمييع والتفريغ من المضمون الذى تواجهه ثقافتنا اليوم .

ويتمثل الخطر فى أن الهجمة الشرسة اليوم هى أشد خطراً من الهجمات التى واجهها المسلمون والعرب تحت الحكم الاستعمارى . وأخطرها محاولة احتواء المنطقة الإسلامية فى صياغة مايسمى مجتمع الاستهلاك الغربى وما تقدمه وسائل الترفيه والأعلام من أسلوب الحياة الغربية عامة والأمريكية خاصة .

وأخطر ما يقدم فى مجال الترفيه والأعلام تقاليد غربية تختلف اختلافاً واضحاً عن القيم الإسلامية والمفاهيم الإسلامية ، وأبرزها رعاة البقر وحلقات دالاس والكاوبوى بما تحتويه من جرائم ومغامرات ، مما يؤدى إلى رضاعة أبنائنا للعنف وانبهار بالغرب وتراجع قيمه ومجتمعه وتاريخه ، وحيث تتراجع صور البطولة الإسلامية التى اختفت تماماً أمام البطولات الأجنبية .

• • •

(٢)

وهكذا نرى أن عملية احتواء العقل المسلم تتواصل فى ميادين ثلاث : التعليم ، الصحافة ، الفن ، وهى فى مجموعها محاولة ترمى إلى

تفريغ المسلم من المحتوى العقائدى ، بهدف هـــدم قاعدتى الربانية والأخلاقية فيها ومن هنا نعرف مدى أهمية عرض (القرآن الكريم والسنة النبوية ، عرضا جديداً عصريا من أجل إعادة تشكيل العقل المسلم من منطلق العودة إلى حمل الأمانة التى عرضها الله تبارك وتعالى على « السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وحملها الإنسان » . والأمانة هى اسلام الوجه لله تبارك وتعالى خالصاً والإيمان بأنه وحده المنطلق الأول والوحيد لحركة الكون والوجود والحياة والإنسان وهو الذى إليه ترجع الأمور .

فإذا صلح هذا المنطلق وتأكد فى النفس المسلمة استطاع مواجهة كل محاولات الاحتواء التى ترمى إلى إبعاد الإسلام عن دوره الحضارى فى قيادة المسلمين ، وهى خطة تعاقدت عليها قوى الوضعيين والماركسيين والوجوديين والبراجماتين والصهيونيين على الرغم مما بينهم من خلافات فكرية وهم الذين أطلقوا على أنفسهم إسم العلمانين ،

والعلمانية - كما يقول الدكتور أحمد عبد الرحمن - فى أبسط تعريف لها هى تفريغ الإسلام من محتوياته ومحاولة تجزئته بقبول بعضه ورفض بعضه الآخر (الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض) وذلك فى محاولة أن يقبل المسلمون الإسلام ديناً ولا يقبلوه شريعة وهم يحملون دعوى عريضة ترمى إلى الإلتقاءين الحضارتين والثقافتين وهى دعوى مضللة ، لأنها تقوم على فرض هيمنة العلم

التجريبي على الوحى المنزل ، وإلغاء مفهوم العلاقة بين الخالق والمخلوق وإلغاء ثبات الشريعة الإسلامية واعتناق الفلسفة النسبية التي تقرر أن كل شيء يتغير ويتبدل بتغير المكان والزمان بما في ذلك حقائق العلوم ، ومبادىء الشريعة وأصول الأخلاق وطاعة العقل والإيمان بالحرية ونبذ عقيدة القضاء والقدر والتضحية بالآخرة في سبيل إيثار الدنيا .

وهكذا نجد أن المدى قد أصبح واسعاً جداً وعوامل الالتقاء بعيدة جداً وأن الإسلام لا يستطيع أن يقبل التضحية بخمس عقائد إسلامية أساسية ثابتة بالآيات المحكمات في سبيل قبول ما يسمى بالالتقاء بين الحضارتين والثقافتين . وأن في إسقاط هـذه القيم إسقاط لجوهر الإسلام وحقيقته الأصيلة ، ومعنى هذه المحاولة مؤامرة خادعة مريرة فيها احتواء كامل وهيمنة شاملة .

ولقد كان المسلمون حتى في أشد فترات الضعف والتخلف فاهمين لهذه المحاذير وواعين لهذه المخاطر ، وحريصين على ألا يفرطوا قيد شعرة في عقيدتهم الخالدة الراسخة .

• • •

والآن نجد أن هناك حصاراً شديداً يحاول أن يسيطر على العقل المسلم بمحاولات مختلفة ، وبوسائل متعددة ، وبدعوات غربية

تتكاتف كلها على كسر هذه الحلقة، وإذابة هذا الحاجز، الذى عجزت كل محاولات الغزو على مدى أربعة عشر قرناً من أن تكسر حلقته أو تذيب حاجزه، ولقد تكشف إنحراف هوية الذين يحملون لواء هذه الغزوة التغريبية، فى محاولة لقيام كيان عربى بديل للإستشراق من كتاب عرب لهم ولاءات مختلفة متعددة ومتغيرة ولكنها فى مجموعها تواجه الإسلام وحده وفى شراسة شديدة بدعوى أن الصحوة الإسلامية التى هى مرحلة تالية لليقظة الإسلامية التى امتدت على مدى ستة عقود هى « موجة رجعية »، وآية رجعيتها اختلافها مع القيم الفكرية والاجتماعية والسياسية التى ظهرت منذ أوائل القرن الماضى والتى ظن أنها قد استقرت فى حياتنا ومدت جذورها فيها، هذه الدهشة التى تجدها على كل لسان وعلى كل قلم، هى دهشة مستغربة وساذجه، فهل ظن أولئك التغريبيون أن تلك البذور التى ألقاها الأجنبى والتغريب والتبشير والإستشراق فى تربة الأمة الإسلامية قد ثبتت وتركزت وآتت أكلها إن كانوا قد ظنوا ذلك فهم واهمون، لم يدرسوا أصالة هذه العقيدة وقدرتها على رفض الجسم الغريب والانتقاض على الحطام والزيف والخروج من دائرة الحصار والاحتواء المفروضة وأن عملهم هذا موصوف فى القرآن الكريم:

(كمثل غيث أعجب الزراع نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاما) وصدق الله العظيم، أنهم يرون اليوم ثمرة عملهم المضال وقد تكشف زيفه وأن هذه الدهشة التى تراها فى كتابات أكثر من

واحد منهم تزول حين نراجع أنفسنا فنرى أننا نعود إلى الأصول العميقة الممتدة فى عقل الأمة وكيانها وفكرها منذ أربع عشر قرناً وأن هذه التحولات التى فرضها النفوذ الأجنبى خلال قرن من الزمان لم تكن أكثر من ضغوط ، فرضت بقوة الاستعمار — وأنها لم تكن متصلة يوما واحداً بالرغم من استمرارها ، وأن ضمير الأمـــة الإسلامية كان دائم الدعوة إلى التحرر منها ورفضها وطلب إزاحتها وأن ما حدث لم يكن أكثر من العودة إلى الأصالة وإلى المنابع ، واسترداد الكرامة والحق والإيمان الصحيح ، ومن كان يظن أن أمة لها ما للأمة الإسلامية من مكانة وعظمة وجاه وفضل وتاريخ يمكن أن تستسلم إلى الأبد أو أن تقبل زوال طابعها أو ترضخ وتنحنى أمام محاولات احتوائها والسيطرة على فكرها وعقلها ووجدانها ومن هنا فإن هذه الدهشة التى نراها إنما هى دهشة السذاجة والعجز عن فهم طبائع الأمم وطبيعة الأمة الإسلامية بالذات ، لقد عاشت هذه الأمة حياتها كلها فى كلمة واحدة : هى الحفاظ على ذاتيتها والدفاع عن طابعها ، وتضحية كل شىء فى سبيل حماية هذا الوجود المتميز ، واليوم ومهما تكاثرت القوى المتآمرة الراغبة فى إزاحة هذا الطابع الخاص فإن ذلك لن يحدث ، فضلا عن أن العودة إلى المنابع والتماس الأصالة لا يمكن أن توصف من توابع المستشرقين وخلفائهم بأنه رجعية أو أنه جمود أو أنه تخلف وهذه كلمات قد فقدت قيمتها ولم تعد تخيف أحداً ، أو تخدع أحداً وقد بارت تجارة هؤلاء القوم

ووضح مكانهم المتخلف حقاً عن حركة الصحوة التي ترمى إلى أن تمتلك الأمة إرادتها ومقدراتها ، وأن هذه المحاولات فى تأخيرها أو إعاقتها مهما تحصنت بقوى النفوذ الغربى فإنها لن تستطيع أن تحقق غايتها أو تنفذ مؤامراتها ، وأن الأمر لن يزيد عن أن يكون عارضاً مؤقتاً سوف يزول تماما بقدرة هذه الأمة على الإيمان والإستمساك بعقيدتها .

ولا بأس من أن نردد هنا ما قاله الأمير شكيب أرسلان مطالباً المسلمين بالعودة إلى الشجاعة واحتقار الموت وخروجا من الجبن والهلع واليأس والقنوط من رحمة الله ، وأن الدبابات والطائرات ليست هى التى تبعث العزائم وإن كانت مطلوبة ، بل الحمية والعزيمة المتجددة هى التى تأتى بالطائرات والدبابات ، وكل آيات العمل فى القرآن ناطقة بأن الإسلام هو دين العمل لا دين الكسل والتواكل والاتكال على القدر المجهول للبشر ، على أن هذا لا ينفى الاعتماد على الله . إن الذين يفهمون الإسلام حق الفهم يرحبون بكل جديد لا يعارض العقيدة . ومن هنا فإن المسلمين ينهضون بما نهض به غيرهم ويمكنهم إن أرادوا بعث العزائم وعملوا بما عرضه عليه كتابهم أن يبلغوا مبالغ الأوروبيين من العلم والإرتقاء وأن يبقوا على إسلامهم كما بقى أولئك على أديانهم » .

إن هذا التيار الجديد الذى يهز التغريبين هزاً شديداً ويدفعهم

إلى التجمع لمحاربة الإسلام ، ليس موجة عابرة ولكنه ظاهرة حقيقية تريد أن تصحح الأوضاع وتعيد المجتمع إلى أصالته وطابعه المؤمن العميق ، قبل أن تلعب به هذه الأهواء والمطامع التى تريد أن تحتويه وأن تصهره فى بوتقتها ليصبح حصاد الهشيم أو ركام الزيف المنصهر، فإن ظنوا ذلك فإنهم واهمـــون ، وفى أشد التجارب المغربة وهى تركيا فإن الأمر لم يدخل مرحلة الكمون إلا سنوات معدودة ، ثم عاد ليرفع رأسه ويعبر عن وجوده الإسلامى المستقل الذى لا يقبل الإنصهار ، والذى يتميز بطابعه الخاص ، وكذلك فى كل مكان سيطرت عملية التغريب ووجدت طريقها ، فإنها لن تصل إلى منطلق للتحرر والخروج من الدائرة المغلقة . ولا بد أن ينكشف دور الرواد الكذبة الذين خدعوا هذه الأمـــة ولمعت أسماؤهم ، وظن المغربون أنهم قد قضوا على الأصالة وقطعوا الأمة عن منابعها .

ونحن مطالبون اليوم ، فى مواجهة هذه المؤامرة الخطيرة التى يشترك فيها العلمانيون والماركسيون وأولياء الفكر الصهيونى - أن نركز على ضرورة صيانة الحقائق الدينية والمفاهيم الإسلامية من التحريف ومن إخضاعها للتصورات العصرية الغربية أو المصطلحات السياسية والاقتصادية والبعد عن تفسير الإسلام تفسيراً سياسياً بحتاً والمغالاة فى تنظير الإسلام ووضعه على مستوى الفلسفات العصرية والنظم الإنسانية لأن هذه الحقائق الدينية هى أساس

للإسلام الدائم والأصل الذى منه البداية إلى النهاية والتى كانت دعوة الأنبياء فى سبيلها كان جهادهم وبها نزلت الصحف السماوية .

وإن نحرص على التحرر من التبعية للقيادة الغربية العالمية إيمانا بالفوارق العميقة فى المزاج والسلوك والفكر والعمل على إعداد نموذج إسلامى يستعيد من التنظيمات الغربية دون أن ينصهر فى النظم الغربية مع الإيمان بأن الإسلام وحده هو القادر على تقديم الحلول النهائية لمشاكل البشرية المعاصرة .



رقم الإيداع ١٩٨٩/٣٣٨٣

مطبعة دار البيان - عابدين